الفصل الرابع
أدلة توحيد العبادة
مقدمة

المراد بتوحيد الألوهية توحيد العبادة، وهو إفراد الله ـ عز وجل ـ بجميع أنواعها الظاهرة والباطنة، فهو توحيد لله ـ تعالى ـ بأفعال خلقه، كالصلاة، والدعاء، والذل، والخضوع، والانقياد، والخوف، والرجاء، والذبح، والنذر، وسائر العبادات والقربات بأنواعها الأربعة: القولية والقلبية والبدنية والمالية[1].

ويدخل في هذا إفراد الله ـ تعالى ـ بالطاعة والتحاكم، إذ هي داخلة في الذل والخضوع والانقياد لله ـ تعالى ـ.

ويطلق بعض العلماء على هذا النوع من التوحيد: التوحيد الإرادي الطلبي، أو التوحيد العملي، ويجعله قسيما للنوعين الآخرين من التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، ويطلق عليهما: التوحيد العلمي، أو الاعتقادي الخبري[2].

وهذا التقسيم لأنواع التوحيد مأخوذ من طريق الاستقراء التام لنصوص الكتاب والسنة، فهو يقيني لاشك فيه[3].

---

(١) انظر دعوة التوحيد للدكتور محمد خليل هراس: ٤١ ومابعدها.

(٢) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز: ١/ ٤٢.

(٣) انظر الرد على من شغب على هذا التقسيم في كتاب صيانة الإنسان للسهسواني: ص٤٣٦، ومابعدها، ودعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب للدكتور عبدالعزيز العبداللطيف: ص٣٢٨، ومابعدها.

والمنهج الشرعي في الدلالة العقلية على استحقاق الله ـ تعالى ـ للإفراد بالعبادة والتألّه دون غيره يدور حول محور واحد لايكاد يتجاوزه، ألا وهو: دلالة التفرد بالربوبية على استحقاق الإفراد بالعبادة.

وأعني بالربوبية هنا مايشمل الأفعال والكمال، المعبر عنهما اصطلاحًا بتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فهما في هذا المقام القسيم المقابل لتوحيد العبادة كما تقدم[1]، وإن كان لكلٍّ منهما دلالته الخاصّة على توحيد الألوهية كما سيأتي.

وقد جاءت هذه الدلالة العقلية في مقامين، أحدهما إيجابي، والآخر سلبي.

وأعني بالإيجابي: إثبات التفرد باستحقاق العبادة، استنادًا إلى التفرد بالربوبية بالمعنى السابق، وبالسلبي: إثبات ذلك من طريق إبطال الشرك في الألوهية.

وسأعرض فيما يلي الأدلة العقلية الشرعية على توحيد الألوهية والعبادة من خلال هذين المقامين.

---

(١) ألمحت فيما سبق عند تعريف توحيد الربوبية؛ إلى أنه يمكن اعتبار توحيد الربوبية شاملاً لجميع صفات الكمال باعتبارها من لوازم الربوبية.

المبحث الأول
دلالة الربوبية على الألوهية

جاء تقرير دلالة الربوبية على الألوهية في القرآن من طريقين:

الأول ـ دلالة توحيد الربوبية بمعنى الانفراد بالخلق والملك والتدبير والإنعام وسائر الأفعال المتعدية.

الثاني ـ دلالة الانفراد بالكمال المطلق، وهو المسمى بتوحيد الأسماء والصفات. وفيما يلي تفصيل كل من الدلالتين، وصورهما في القرآن والسنة.

المطلب الأول
دلالة توحيد الربوبية على توحيد العبادة

سبق بيان أنّ المراد بتوحيد الربوبية: إفراد الله ـ عز وجل ـ بالخلق والملك والتدبير، وأن القرآن قد أقام الأدلة اليقينية القاطعة على هذا النوع من التوحيد[1].

والمقصود هنا بيان الأثر المرتب على هذه الحقيقة في القرآن، وكيف ربط توحيد الربوبية بتوحيد العبادة، باعتبار أن الأول من أعظم الأدلة على الثاني، وماكان ليُعاد ويُثنّى بذكر دلائل هذا النوع لمجرد الإقرار به والوقوف عنده، إذ الإقرار به فطري، والإتيان بأصله حاصل من عامة بني آدم، إلا ما شذّ منهم، كما مر في الفصل الأول[2]. وقد

---

(١) انظر ص: ٣٠٨.

(٢) انظر ص: ١٩٤ ومابعدها.

جاء عرض هذه الدلالة العقلية لتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية بصورتين: مجملة ومفصلة.

أما المجملة فكانت بذكر لفظ الربوبية الشامل لسائر معاني الخلق والملك والتدبير والإنعام وغيرها، والاحتجاج بأن من ثبتت له هذه الصفة هو المستحق وحده لأن يُعبد دون غيره، ومن أوضح الأمثلة على هذا مايلي:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[١]، فقد استنكر في الجملة الأولى أن يكون له مطلوب سوى الله ـ تعالى ـ، وهذا يتضمن التعبد دون شك، وأقام الدليل القاطع على ذلك في الجملة الثانية التاليّة، إذ كل ما سوى الله ـ تعالى ـ مربوب، فلا يصلح للربوبية، ولايستحق أن يعبد[٢].

٢ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝٩٢﴾[٣]، حيث رُتِّب الأمر بالعبادة على وصف الربوبية بالفاء.

وهكذا يمكن اعتبار لفظ (رب) حاملاً لهذه الدلالة على هذا النحو حيث ورد مضافا إلى العالمين.

٣ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٦٦﴾[٤].

٤ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾[٥].

وأما تفصيل هذه الدلالة فيكون بذكر معاني الربوبية معنىً معنىً،

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٤.
(٢) انظر تفسير البيضاوي: ١/ ٣٣٠.
(٣) سورة الأنبياء: ٩٢، وانظر المؤمنون: ٥٢.
(٤) سورة ص: ٦٥ ـ ٦٦.
(٥) سورة مريم: ٦٥.

وتعليق استحقاق الله ـ تعالى ـ للإفراد بالعبادة على انفراده بهذه المعاني والأوصاف دون غيره.

وهذا التفصيل قد يأتي أحيانًا في سياق واحد، تُذكر فيه بعض معاني الربوبية، كالخلق والتدبير، ثم تختم بذكر اقتضائها للتوحيد في العبادة، وقد جاء هذا الأسلوب في الاستدلال على هذا المطلب بكثرة في القرآن، ومن أمثلته البينة:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[1].

٢ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ... ﴾ الآيات إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[2].

٣ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾[3].

٤ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[4] والمعنى هنا: فذلكم الله معبودكم الحق. إذ كانوا مقرين أن الله ـ تعالى ـ ربهم الحق، بدليل الآية قبلها.

٥ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

---

(١) سورة يونس: ٣.
(٢) سورة الأنعام: ٩٥ ـ ١٠٢.
(٣) سورة غافر: ٦١، ٦٢.
(٤) سورة يونس: ٣١، ٣٢.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1]. [2]

قال ابن القيم عن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، ـ ضمن تعليق نفيس له على هاتين الآيتين ـ: (وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا، وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًا، وقد ربّاه بإحسانه إليه، وإنعامه عليه، فعبادته له، وشكره إياه واجب عليه، ولهذا قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، ولم يقل إلـٰهكم، والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله ـ تعالى ـ هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لاشريك له)[3].

٦ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ . . . الآيات إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[4].

ففي هذا السياق الكريم تكرر قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ في ختام الآيات التي تضمنت معاني الربوبية، وهذا استفهام إنكار على المشركين أن يعبدوا غير الله ـ تعالى ـ، مع اعترافهم بأنه المنفرد بالخلق والعناية والتدبير. وقد غلّط ابن تيمية من جعل

---

(١) سورة البقرة: ٢١، ٢٢.

(٢) ذُكر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه فسر ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ أي: وحدوا ربكم. انظر جامع البيان للطبري: ١/ ١٦٠.

(٣) بدائع الفوائد: ٤/ ١٣٢. وقد علق على تمام الآيتين بما يحسن الاطلاع عليه لأهميته. انظر: ٤/ ١٣٢ ـ ١٣٤.

(٤) سورة النمل: ٥٩ ـ ٦٤.

معنى الاستفهام: أيّ إلـه مع الله موجود؛ لأن المشركين ماكانوا يقولون إن شركاءهم الذين يجعلونهم مع الله آلهة يفعلون هذه الأمور، والتقرير في الآية لايكون إلا لما يقرون به، وهم مقرون بأن شركاءهم لم يفعلوا ذلك، لكن لم يكونوا مقرين بأنه ليس مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾[1]. [2]

٧ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ الآية[3].

فقد ذكر ابن جرير عن بعض السلف أنها نزلت تصديقا من الله ـ تعالى ـ لنبيّه ﷺ، واحتجاجًا له على مايدعو إليه من توحيد العبادة، وذلك أنه لما نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾، طلب المشركون حجة وبرهانا على هذه الدعوى التي هي أصل الخصومة بينهم وبين النبي ﷺ، فأنزل الله ـ تعالى ـ الآية التي بعدها برهانا على ذلك[4].

---

(١) سورة الأنعام: ١٩.

(٢) انظر الفتاوى: ١١/ ٦٨٣، وشرح الطحاوية لابن أبي العز: ١/ ٣٧ بتحقيق التركي.

(٣) سورة البقرة: ١٦٣، ١٦٤.

(٤) انظر جامع البيان: ٢/ ٦٥، ٦٦، وقد ذكر في سبب نزولها خلافا حاصله: هل نزلت بطلب من المشركين؟ أم ابتداءً من الله ـ تعالى ـ احتجاجًا لنبيه ﷺ؟، وعلى كلا القولين فالمراد حاصل، وهو اشتمالها على الاستدلال بالربوبية على الألوهية، وانظر بيان الدلائل المذكورة في الآية فيما تقدم في الفصل =

وقد نبه ابن جرير إلى أن الله ـ تعالى ـ إنما حاجّ بهذه الآية قوما كانوا مقرين بأن الله ـ تعالى ـ خالقهم، غير أنهم يشركون في عبادته، ولم يحاجّ بها المعطلة ولا الدهرية الذين ينكرون الصانع أصلاً، وإن كان في أصغر ماعدّ الله ـ تعالى ـ في هذه الآية من الحجج البالغة المقنعُ لجميع الأنام.

وهو بهذا التنبيه يرد على من يعترض على دلالة الآية بأن أصنافا من الكفار ينكرون أن تكون السمٰوات والأرض وسائر ماذكر في الآية مخلوقًا أصلا، فلا ينهض عليهم الاحتجاج بما فيها.

٨ ـ ماحكاه الله ـ تعالى ـ من قول إبراهيم لقومه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾[1].

والأمثلة على هذا كثيرة جدا في القرآن[2].

كما قد يأتي الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة مفصلاً بصورة أكبر وأكثر تحديدًا، وذلك بذكر معنى واحد من معاني الربوبية، والاستدلال به على توحيد العبادة، وهذا أكثر مايأتي في القرآن من الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة، ولاتكاد تخلو سورة منه.

وسأعرض فيما يلي ماوقفت عليه في القرآن من آحاد معاني

= الأول (ص٢٦٥ ومابعدها)، وانظر أيضا في ذلك تفسير الرازي: ١٧٨/٤ ومابعدها، فقد توسع في بيان الدلائل التي تضمنتها هذه الآية الكريمة.

(١) سورة الشعراء: ٧٥ ـ ٨١.

(٢) انظر مثلاً: سورة الأنعام: ١، والأعراف: ٥٤ ـ ٥٦، وطه: ٤٩ ـ ٥٤، والسجدة: ٤، والزمر: ٢ ـ ٦، ونوح: ١٤ ـ ٢١.

الربوبية التي استخدمت دليلاً على توحيد العبادة، مع ذكر أمثلة متنوعة لكل معنى.

أ ـ الخلـــق.

وهو أبرز معاني الربوبية، وهو عند بعض المتكلمين كالأشعري وغيره أخص أوصاف الإله[1]. وهو دال على بقية معاني الربوبية بطريق اللزوم.

ومن الأمثلة القرآنية الظاهرة في الاستدلال به على توحيد العبادة مايلي:

* ماقصه الله ـ تعالى ـ من قول صاحب يس: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[2]، فإنه قصد الإفراد بالعبادة، لامطلق العبادة، بدليل ذكره للدونية، والشفاعة في قوله بعدها: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾[3]، فالخصومة كانت في إفراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة، لافي مطلق عبادته ولو مع غيره على سبيل الاستشفاع.

يقول ابن القيم عن هذا الاحتجاج:

(أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفًا لهم، ونبّه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجَن تركها، قبيح الإخلال بها؛ فإنّ خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، ونعمه كلها بعدُ تابعة لإيجاده وخلقه)[4].

* ماذكره الله ـ تعالى ـ من قول نبيه صالح ـ عليه السلام ـ لقومه:

---

(١) انظر أصول الدين للبغدادي، ص١٢٣، والملل والنحل للشهرستاني: ١/ ١٠٠، ودرء تعارض العقل والنقل: ٩/ ٣٧٧.

(٢) سورة يس: ٢٢.

(٣) سورة يس: ٢٣.

(٤) الصواعق المرسلة: ٢/ ٤٩٥، ٤٩٦.

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾[1] فقد أردف دعواه توحيد العبادة بدليلها القاطع، ألا وهو الانفراد بالخلق.

* ماذكره الله ـ تعالى ـ من شأن صاحب الجنتين بقوله: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

* قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[3].

* قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[4]، والمراد هنا إنكار التسوية والعدل في استحقاق العبادة. فالذي يخلق هو المستحق للعبادة دون من لايخلق، فهو بمعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[5]، على أظهر التفسيرين لقوله: ﴿ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[6].

* ماذكره الله ـ تعالى ـ من جواب موسى لفرعون عندما سأله: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾[7]، فإن معنى سؤال فرعون: من ربكما الذي تعبدانه؟ أي: من معبودكما، وإلا فهو يعلم أنه لم يخلقهما، وإنما يطمع في عبادتهما له.

---

(١) سورة هود: ٦١.
(٢) سورة الكهف: ٣٧، ٣٨.
(٣) سورة فصلت: ٣٧.
(٤) سورة النحل: ١٧.
(٥) سورة الأنعام: ١.
(٦) انظر أضواء البيان: ٢/ ١٧.
(٧) سورة طه: ٤٩، ٥٠، وقد تقدم في الفصل الأول من هذا الباب ذكر الأقوال في تفسير هذه الآية. ص١٨٠.

* ماذكره الله ـ تعالى ـ في كتابه الكريم، من جواب الرسل لأقوامهم لما قالوا لهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، والرسل لم يكونوا يدعونهم إلى الإقرار بالصانع[2]، إذ كان هذا مسلمًا لدى الجميع، وإنما كانوا يدعونهم إلى توحيد العبادة، ونبذ الأنداد، فمورد شك الكفار هنا هو إفراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة دون غيره، فيكون قول الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استدلال على توحيد العبادة بالدليل الفطري الداخلي، الذي هو مضمون استفهامهم الاستنكاري: (أفي الله شك)، وبالدليل العقلي الخارجي، الذي هو خلق السموات والأرض.

ولايعني هذا عدم دلالة الآية على إثبات الصانع بطريق الأولى كما تقدم في الفصل الأول[3].

* قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾[4].

* ماذكره الله ـ تعالى ـ عن نبيّه إلياس ـ عليه السلام ـ، حيث قال لقومه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٢٦﴾[5].

---

(١) سورة إبراهيم: ٩، ١٠.

(٢) انظر تفسير الطبري: ١٣/ ١٩٠، وكلام ابن تيمية المتقدم، ص: ١٦٤، ١٦٥.

(٣) راجع ص: ١٦٩، ١٧٠.

(٤) سورة آل عمران: ٦، وفي هذه الآية كما يقول ابن كثير تصريح ببطلان ألوهية عيسى ابن مريم؛ فإنه خُلق كغيره من سائر البشر، وصور في رحم أمّه، والإله لايتقلب في الأحشاء حالاً بعد حال كما قال ابن جرير: (فإن خلاّق مافي الأرحام لاتكون الأرحام مشتملة عليه، وإنما تشتمل على المخلوقين). انظر جامع البيان: ٣/ ١٦٨، وعمدة التفسير: ٢/ ٢١٨.

(٥) سورة الصافات: ١٢٥، ١٢٦، ومعنى أحسن الخالقين: أحسن المقدرين. =

وفي هذا السياق ـ زيادةً على إقامة الدليل على توحيد العبادة ـ إبطال احتجاج المشركين باتباع دين الآباء الأولين.

وهكذا فالقرآن مملوء من جنس هذا الاستدلال العقلي القاطع.

يقول الشنقيطي: (ومن كثرة الآيات القرآنية الدالة على إقامة هذا البرهان القاطع المذكور على توحيده ـ جل وعلا ـ عُلم من استقراء القرآن أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة ومن لايستحقها هو كونه خالقا لغيره، فمن كان خالقا لغيره فهو المعبود بحق، ومن كان لايقدر على خلق شيء، فهو مخلوق محتاج، لايصح أن يُعبد بحال)[1].

ومما جاء في السنّة على هذا المنوال:

ـ ما في الصحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: (أن تجعل لله ندًا وهو خلقك).

قلت: إن ذلك لعظيم.. الخ[2].

والشاهد هنا قوله: (وهو خلقك)، فإنه دليل على استحقاق الله ـ تعالى ـ للإفراد بالعبادة ونبذ الأنداد، وقد قرنه ﷺ بذكر الشرك؛ ليبيّن بعظمة دلالته وظهورها عظمة هذا الذنب وظهور قبحه.

ـ ما رواه الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن الحارث الأشعري يرفعه: «إن الله ـ عز وجل ـ أمر يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ بخمس كلمات... » الحديث، وفيه أن يحيى ـ عليه السلام ـ قال لبني إسرائيل:

= انظر أضواء البيان للشنقيطي: ٤/ ٧٨١.

(١) أضواء البيان: ٧/ ٣٦٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (٤/ ١٦٢٦)، حديث رقم (٤٢٠٧). وصحيح مسلم، كتاب الإيمان: باب كون الشرك أقبح الذنوب، (١/ ٨٧)، حديث رقم (٨٦).

«وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولاتشركوا به شيئًا»[1].

فرتب الأمر بتوحيد العبادة على التفرد بالخلق والرزق.

ـ ما رواه البيهقي بسنده عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يقول الله ـ عز وجل ـ: (وإني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري)»[2].

ووجه الشاهد منه ظاهر، وهو التهويل من أمر الشرك في العبادة، مع أن الفطرة والعقل شاهدان بأن من يخلق ويرزق هو وحده صاحب الحق أن يُعبد ويُشكر، ولايخفى مافي هذا المعنى من تطابق مع ماقبله من الآيات والحديث.

ب ـ الملك.

وهو من لوازم الخلق بداهة، إذ يمتنع أن يكون مالكَ الخلق غيرُ خالقهم، الذي أوجدهم من العدم، كما أنه من المعاني الرئيسة الظاهرة للربوبية، لغة وشرعًا كما سبق[3].

---

(١) المسند: ٤/ ١٣٠، ٢٠٢، وانظر سنن الترمذي، كتاب الأمثال، باب ماجاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، ٥/ ١٤٨ برقم: (٢٨٦٣)، وقال عنه: حديث حسن صحيح. وقد حسنه ابن كثير في تفسيره: ١/ ٦٢، وأورده أحمد شاكر في عمدة التفسير: ١/ ١١٧، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع: ١/ ٣٥٦ برقم (١٧٢٤) من الطبعة الثانية، وفي صحيح الترغيب والترهيب: ١/ ٢١٩ برقم (٥٥٣).

(٢) شعب الإيمان، باب في تعديد نعم الله ـ عز وجل ـ ومايجب من شكرها، (٤/ ١٣٤) حديث رقم (٤٥٦٣). وذكر السيوطي في الدر المنثور: ٦/ ١٤٢؛ أنه أخرجه الطبراني في مسند الشاسيين والحاكم في التاريخ، وقد ضعفه الشيخ الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة: ٥/ ٣٩٣، حديث رقم (٢٣٧١)، والقصد من الحديث دلالته العقلية فلا يضرّ ضعفه إن شاء الله.

(٣) راجع تعريف توحيد الربوبية فيما سبق: ص٣٠٨.

لذلك جاءت الدعوة إلى توحيد العبادة مقترنة بذكر انفراد الله ـ تعالى ـ بالملك المطلق التام، اقتران المدلول بدليله، والدعوى بحجتها، وذلك في نصوص كثيرة من الكتاب والسنّة، منها على سبيل المثال:

* قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾[1].

والشاهد فيها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، قال ابن جرير في معناه: (ولرب هذه البلدة الأشياء كلها ملكًا، فإياه أُمرت أن أعبد، لامن لايملك شيئا)[2].

* قوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾[3]، ووجه الدلالة هنا على توحيد العبادة: أنهم ماكانوا ينكرون أن لله ـ تعالى ـ الخلق والملك دون غيره، بدليل أن الله ـ تعالى ـ لما أمر نبيّه بقوله: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[4]؟، كان الجواب: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[5].

فاستدل بما أَقروّا به ـ وهو الانفراد بالملك ـ على ما أنكروه، وهو قول «لا إله إلا الله»، فدل دلالة قطعية على أن معناها: لامعبود بحق إلا الله، ثم أنكر عليهم غاية الإنكار أن يُصرفوا عن الحق مع ظهوره وقيام برهانه.

---

(١) سورة النمل: ٩١.

(٢) جامع البيان: ٢٠/ ٢٤، وقد ذكر ابن جرير أن الحكمة من تخصيص مكة بإضافة الربوبية إليها مع أنه رب البلاد كلها ليعرّفهم نعمته عليهم وإحسانه إليهم بتحريمها دون سائر البلاد، مما جلب لهم الأمن دون غيرهم. وهذا هو مضمون سورة قريش.

(٣) سورة الزمر: ٦.

(٤) سورة المؤمنون: ٨٨.

(٥) سورة المؤمنون: ٨٩.

* قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

فهذا استدلال بالملك على الاستئثار بالشفاعة، وهو رد على شبهة المشركين في عبادة غير الله، وأن المقصود بها مجرد الشفاعة عند الله ـ تعالى ـ[2].

فرد عليهم بأن هذه المعبودات كما أنها لاتملك شيئا من السموات والأرض فكذلك لاتملك شيئا من أمر الشفاعة، وإنما يملكها الذي يملك السموات والأرض وحده.

* ما رواه الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات، أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن...» وذكر الحديث وفيه:

«وأولهن: أن تعبدوا الله لاتشركوا به شيئًا، فإن مَثَل ذلك مَثَل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله، بوَرِق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي الذي عليه إلى غير سيده، فأيكم يسرُّه أن يكون عبده كذلك؟، وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولاتشركوا به شيئا»[3].

ووجه الشاهد في هذا الحديث ـ سوى ماتقدم عند ذكر دلالة الخلق ـ أن النبي ﷺ قاس استحقاق الله ـ تعالى ـ للعبادة من مملوكيه على استحقاق صاحب العبد المملوك أن تكون خدمته وعمله خالصين لسيده قياسًا أولويا، إذ إن وصف عبودية الخلق لله ـ تعالى ـ أعظم ثبوتا منها فيما بينهم، كما أن صفة الملك لله ـ تعالى ـ الخالق الرازق مطلقة

---

(١) سورة الزمر: ٤٤.

(٢) انظر تفسير البيضاوي: ٢/ ٣٢٧.

(٣) سبق تخريجه قبل صفحتين.

تامة كاملة، بخلاف ملك المخلوق المحدود الناقص المقيد، فإذا كان واجبا عقلاً وفطرةً أن يخلص العبد عمله لسيده المخلوق المرزوق، فمن باب أولى إخلاص العمل التألّهي للسيّد الخالق الرازق.

* وهذا المعنى الذي تقدم في الحديث السابق قد ذكره الله ـ تعالى ـ في كتابه حيث قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1].

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه الآية فقال:

(يقول ـ تعالى ـ: إذا كان الواحد منكم ليس له من مماليكه شريك فيما رزقه الله، بحيث يخاف ذلك المملوكَ كما يخاف السادة بعضهم بعضا، فكيف تجعلون لي شريكا هو مملوكي، وتجعلونه شريكا فيما يختص بي من العبادة والمخافة والرجاء، حتى تخافوه كما تخافوني؟

ومن المعلوم أن ملك الناس بعضهم بعضًا ملك ناقص، فإن السيد لايملك من عبده إلا بعض منافعه، لايملك عينه، وهو شبيه بمِلك الرجل بعض منافع امرأته، ومِلك المستأجر بعض منافع أجيره... فإذا كان هذا المِلك الناقص لايكون المملوك فيه شريكا للمالك، فكيف بالمِلك الحق التام لكل شيء؟ مِلك المالك للأعيان والصفات، والمنافع والأفعال، الذي لايخرج عن ملكه شيء بوجه من الوجوه، ولا لغيره ملك مفرد، ولاشريك في ملك ولامعاونة له بوجه من الوجوه، كيف يسوغ في مثل هذا أن يُجعل مملوكُه شريكَه بوجه من الوجوه؟)[2].

---

(١) سورة الروم: ٢٨.

(٢) درء التعارض: ٧/ ٣٨٩، ٣٩٠، وانظر إعلام الموقعين لابن القيم: ٧/ ٣٨٩ ومابعدها.

جـ ـ التدبير[1].

وهو جنس يدخل تحته أنواع كثيرة، كالإحياء والإماتة، والنفع والضر، والرزق والمنع، والخفض والرفع، والتحريك والتسكين، والجمع والتفريق، وغير ذلك من أنواع تدبير الله ـ تعالى ـ للخلائق، ومما يدخل فيه الإنعام بمختلف صوره الظاهرة والباطنة، ومن الاستدلال بصفة التدبير جملة على توحيد العباده قوله ـ تعالى ـ: ﴿... وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ..﴾[2].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾[3].

المعنى: هل يستوي الرب القائم بحفظ أرزاق جميع الخلائق، الضامن لها، العالم بهم، وبما يكسبونه من الأعمال، الرقيب عليهم، ـ وهذه معاني القيومية ـ هل يستوي مَن هذا حاله في استحقاق العبادة بهذه الآلهة التي يعبدها المشركون؟ مع كونها لاتتصف بشيء من ذلك إطلاقا[4].

وقد حُذف الجواب في الآية اكتفاء بعلم السامع بما ذُكر عما تُرك ذكره[5].

وسأذكر أمثلةً مما ورد في الكتاب والسنّة من الاستدلال المفصل بهذه المعاني من معاني الربوبية على توحيد العبادة:

---

(١) مشتق من الدُبر: وهو آخر الشيء، وأُطلق على تصريف الأمور؛ لأن المدبر ينظر إلى ماتصير إليه عاقبة الأمور، وأواخرها. انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٢/ ٣٢٤، (مادة دبر).

(٢) سورة يونس: ٣١، ٣٢.

(٣) سورة الرعد: ٣٣.

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري: ١٣/ ١٥٨، ١٥٩.

(٥) المرجع السابق: ١٣/ ١٥٩.

المثال الأول ـ الإحياء والإماتة، وقد جاء ذكرها عقب كلمة التوحيد في موضعين من القرآن، إيذانًا بأن المحي المميت هو المستحق للعبادة وحده دون من لايملك موتا ولاحياة ولانشورا، قال ـ تعالى ـ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[1].

وذكرها إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ضمن صفات معبوده الحق بقوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾[2].

وقال ـ تعالى ـ في محاجة المشركين: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾[3]، فالولي الحق هو القادر على إحياء الموتى، دون من لايقدر على ذلك.

كما جاء الاستدلال بالتوفي ـ الذي هو قبض الأرواح والإماتة ـ على توحيد العبادة بماهو أصرح من ذلك، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ . .﴾[4]. [5]

وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٨، والدخان: ٨.

(٢) سورة الشعراء: ٨١.

(٣) سورة الشورى: ٩.

(٤) سورة يونس: ١٠٤.

(٥) خُصص التوفي بالذكر هنا دون غيره من صفات الأفعال ومعاني الربوبية والتدبير لما فيه من التخويف الرادع عن العناد، أو لأنه واسطة بين البدء والإعادة، فاكتفى بذكره للدلالة عليه، وقيل غير ذلك، انظر تفسير الرازي: ١٧/ ١٧٢، وروح المعاني للآلوسي: ٦/ ١٨٤.

(٦) سورة الزمر: ٤٢.

قال ابن جرير عند تفسيرها: (يقول تعالى ذكره: ومن الدلالة على أن الألوهية لله الواحد القهار خالصة دون كل ماسواه: أنه يميت ويحي ويفعل مايشاء، ولايقدر على ذلك شيء سواه)[1].

ويدخل هذا النوع من الاستدلال ضمنًا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2]، فإن ترك عبادة الله، أو عبادة غيره من أعظم الكفر دون شك.

المثال الثاني ـ الإنعام، ويدخل فيه أمور كثيرة جاء الاحتجاج بها في القرآن على توحيد العبادة:

● أشرفها الاجتباء والاصطفاء والتفضيل، كما في قول موسى لقومه: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[3].

● ومنها الإيمان والإطعام كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾[4]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[5]، والهدى الذي دعاهم إليه هو إفراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة، ومثله قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾[6]، وقد سُبقت هذه الآية بذكر شركهم في الدعاء الذي هو مخ العبادة، وذلك في حال الرخاء، وقد كانوا مخلصين

---

(١) جامع البيان: ٨/٢٤.
(٢) سورة البقرة: ٢٨.
(٣) سورة الأعراف: ١٤٠.
(٤) سورة قريش: ٣، ٤.
(٥) سورة القصص: ٥٧.
(٦) سورة العنكبوت: ٦٧.

في الشدة، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1]، أي في العبادة والدعاء.

وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾[2]، وهذا استدلال بالخلق والإنعام معًا.

ونحوه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[3].

● ومنها تسخير الأنعام وسائر المخلوقات، وسورة النحل مملوءة من هذا النوع من الاستدلال، حتى إنها سميت سورة النِّعم، لكثرة ماذكر الله ـ تعالى ـ فيها من أنواع النّعم على عباده[4]؛ جاء فيها قوله ـ تعالى ـ بعد ذكر جملة من النِّعم السابغة: ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[5]، وقوله: ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[6]، وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[7] وقوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[8].

والجحود والكفران المستنكر بعد التذكير بهذه النِّعم إنما كان بعبادة غير الله ـ تعالى ـ معه، مع أنها ليس لها شرك مع الله ـ تعالى ـ في إيلاء هذه النِّعم وإسدائها، أو بنسبة هذا الإنعام إلى غير الله ـ تعالى ـ، إما إلى أوثان أو إلى أسباب، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٥.
(٢) سورة الأنعام: ١٤.
(٣) سورة فاطر: ٣.
(٤) انظر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٣٩.
(٥) سورة النحل: ٧١.
(٦) سورة النحل: ٧٢.
(٧) سورة النحل: ٨١.
(٨) سورة النحل: ٨٣.

تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1]، فقد جاء عن السلف أنهم فسروا التكذيب في هذه الآية بنسبة إنزال المطر إلى الأنواء[2]، وهذا شرك في الربوبية لافي العبادة؛ لأنه نسبة صفة من صفات الربوبية لغير الله ـ تعالى ـ.

المثال الثالث ـ النفع والضر[3]، استدل بهما الخليل ـ عليه السلام ـ على التوحيد، كما في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾[4]، وقال ـ تعالى ـ في سياق الاحتجاج للتوحيد: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾[5]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[6]، وقال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾[7].

---

(١) سورة الواقعة: ٨٢.

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ٣١٥، والأنواء هي منازل القمر.

(٣) لم يأت في القرآن إسناد الضرّ وحده إلى الله ـ تعالى ـ بالمنطوق، وإنما يفهم ذلك مما جاء بمعناه من الآيات، ومن ترتيب بطلان عبادة الشركاء على تجردهم من الاتصاف به، كما سيأتي، وفي ذلك سرٌّ بديع، وهو تنزيه الله ـ تعالى ـ عن نسبة الشر إليه إلا على سبيل الخلق، والضُرّ من جنس الشر، فلا ينسب إلى الله ـ تعالى ـ وصفًا، بل خَلقًا، كما لايذكر إلا مقرونا بضده، أو مقيدًا على الوجه اللائق بالله ـ تعالى ـ، كما في قوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢]. وهذا معنى قوله ﷺ: «.. والشر ليس إليك» أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل: ١/ ٤٤٩ برقم (٧٧١). انظر الحسنة والسيئة لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٤٨ ـ ٥٢.

(٤) سورة الشعراء: ٨٠.

(٥) سورة يونس: ١٠٧، ونحوها في الأنعام: ١٧.

(٦) سورة الإسراء: ٦٧.

(٧) سورة الزمر: ٣٨.

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، كما سيأتي في المقام السلبي.

وجاء الاستدلال بتفرد الله ـ تعالى ـ بهما على توحيد العبادة في قول النبي ﷺ لحصين الخزاعي ـ والد عمران بن حصين ـ فيما رواه الإمام الترمذي بسنده عن عمران بن حصين مرفوعًا: «ياحصين، كم تعبد اليوم إلـهًا؟ قال: سبعة، ستًا في الأرض وواحدًا في السماء. قال: فأيهم تُعدّ لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء»[1].

وفي رواية ابن خزيمة[2] أن النبي ـ ﷺ ـ قال له: «فإذا أصابك الضر من تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فإذا هلك المال من تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فيستجيب لك وحده وتشركهم معه؟!. أرضيته في الشكر، أم تخاف أن يغلب عليك؟ قال: ولا واحدة من هاتين».

المثال **الرابع ـ الهداية**، وقد جاء الاستدلال بها على توحيد التحاكم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾[3] وفي مناظرة موسى لفرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[4]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[5] وقال: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾[6]، ولايكون تكبير الله ـ تعالى ـ إلا بإفراده بالعبادة، وقال

---

(١) السنن، كتاب الدعوات، باب رقم (٧٠)، ٥/٥١٩، ٥٢٠، حديث رقم: (٣٤٨٣)، وانظر السنن الكبرى للنسائي: ٦/٢٤٧، برقم: (١٠٨٣٢)، وأورده الألباني في القسم الضعيف من سنن الترمذي.

(٢) ذكرها الحافظ ابن حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/٣٣٦) ولم اهتد إليها في الموجود من صحيح ابن خزيمة.

(٣) سورة الأنعام: ١١٤.

(٤) سورة طه: ٥٠.

(٥) سورة الأعلى: ١ ـ ٣.

(٦) سورة البقرة: ١٨٥، والحج: ٣٧.

إبراهيم لقومه فيما أخبر الله عنه: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۖ﴾[1]، أي في وجوب إفراده بالعبادة. وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[2]، وقال تعالى ـ على لسان الرسل ـ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾[3]، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾[4].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وسيأتي المزيد ـ إن شاء الله ـ عند إبطال الشرك.

---

(١) سورة الأنعام: ٨٠.
(٢) سورة الأنعام: ٧١.
(٣) سورة إبراهيم: ١٢.
(٤) سورة البلد: ٨ ـ ١١.

obeikandl.com

المطلب الثاني
دلالة الانفراد بالكمال على توحيد العبادة.

الاتصاف بالكمال المطلق إنما يدل في هذا الباب على استحقاق صاحبه للعبادة، أما دلالته على توحيد العبادة واستحقاق الله ـ عز وجل ـ أن يُفرد بها، فمن حيث إن من لم يبلغ هذا الكمال ولم يتصف به لزمه الاتصاف بضده، مما ينافي التعبد فطرة وعقلاً.

وعلى هذا فكل ما جاء في الكتاب والسنّة من صفات الجلال والكمال الثابتة للرب ـ تبارك وتعالى ـ فإنها أدلة على استحقاقه لأن يفرد بالعبادة، إذْ لم يشاركه أحد في شيء من ذلك الكمال الإلهي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص [يعني آيات الصفات] لمجرد تقرير صفات الكمال، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون ماسواه، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتم التوحيد، وهما: إثبات صفات الكمال، ردًا على أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إلٰه إلا هو، ردًا على المشركين، والشرك في العالم أكثر من التعطيل)[1].

وبهذا الاعتبار، فإن جميع معاني الربوبية السابق ذكرها في دلالة توحيد الربوبية على توحيد العبادة تدخل في هذا النوع من الدلالة.

ومن الأمثلة الظاهرة في القرآن على هذا النوع من الدلالة:

١ ـ ما جاء في أعظم آية[2] في كتاب الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

---

(١) الفتاوى: ٦/ ٨٢، ٨٣.

(٢) ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث أبي بن كعب، في صلاة المسافرين، =

﴿إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[1]، والدلالة هنا كامنة في اقتران كلمة التوحيد بهذين الاسمين من الأسماء الحسنى، فإنه يفيد دون شك دلالة الكمال المطلق على توحيد العبادة.

وذلك أن هذين الاسمين متضمنان لسائر صفات الكمال، وعليهما مدار الأسماء الحسنى كلها، فإن الحياة لاتكون أكمل حياة واتَّمها إلا بثبوت كل كمال يُضاد نفيه كمال الحياة، وكذلك القيومية تتضمن كمال الغنى والقدرة، فالمتصف بها قائم بنفسه، لايحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، مقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته[2].

٢ ـ ومما يحمل هذه الدلالة قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[3].

فقد رُتّب الأمر بالدعاء[4] في هذه الآية بالفاء، على ماسبقه من الوصف بالحياة وانتفاء الألوهية عن غير الله ـ تعالى ـ.

٣ ـ ومما هو صريح في الاستدلال بتفرد الله ـ تعالى ـ بالكمال على تفرده باستحقاق العبادة: سورة الإخلاص؛ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

فإن الآية الأولى منها تدل على تفرد الله ـ تعالى ـ بالكمال المطلق (فهو أحد لايماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه)[5].

= باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، (١/ ٤٦٥)، برقم (٨١٠).

(١) سورة البقرة: ٢٥٥، ونحوها في آل عمران: ١.

(٢) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز: ١/ ٩٠ ـ ٩٢.

(٣) سورة غافر: ٦٥.

(٤) الدعاء هنا يشمل النوعين: دعاء المسألة، ودعاء العبادة، انظر الفرق بينهما في تيسير العزيز الحميد: ص٢١٥، ٢٢٧.

(٥) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية: ص٢٩.

والثانية تدل على أن الله ـ تعالى ـ هو السيد الذي يُصمد إليه في الحوائج، وهذا هو معنى الصمد على أحد القولين[1].

فعلى هذا يكون مجيء قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ بين ذكر الكمال في أول السورة والتنزيه في آخرها من جنس الاستدلال بالكمال على أن صاحبه هو المستحق لأن يفرد بالعبادة والمسألة دون غيره.

٤ ـ ومن هذا الضرب من الاستدلال قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾[2][3].

وقد مر ذكر هذه الآية في دلالة الربوبية على توحيد العبادة، أما هنا فالدلالة المقصودة كامنة في مجيء قوله ـ تعالى ـ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾؟ بعد الأمر بالعبادة وبالاصطبار عليها، فإن هذه إشارة إلى دلالة التفرد بالكمال على استحقاق التفرد بالعبادة، فكأنه قال: هل تعلم له سميّا فيستحق أن يعبد معه؟.

٥ ـ ومن الإشارات القرآنية إلى هذه الدلالة: ذكر الأسماء الحسنى والصفات العُلى الدالة على الكمال بعد ذكر كلمة التوحيد، وذلك في كثير من الآيات، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾[4]، وقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾[5]، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾[6].

---

(١) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية: ص١٣.
(٢) معنى سميًّا: شبيها أو مثلاً، انظر جامع البيان: ١٠٦/١٦.
(٣) سورة مريم: ٦٥.
(٤) سورة طه: ٨.
(٥) سورة البقرة: ١٦٣.
(٦) سورة آل عمران: ٦، ١٨.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾[3]، وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾[4].

٦ ـ وأوضح من ذلك دلالة على التوحيد مجيء تنزيه الله ـ سبحانه ـ عن الشرك بعد ذكر صفات الكمال، في كثير من الآيات، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾[5]، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[6].

٧ ـ ومن الاستدلال بصفات الكمال الإلهية على وجوب توحيد الله بالعبادة ماقصه الله ـ تعالى ـ عن هدهد سليمان، من إنكار سجود سبأ للشمس من دون الله، قال ـ تعالى ـ فيما حكاه عنه: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾[7].

---

(١) سورة آل عمران: ٦٢.
(٢) سورة طه: ٩٨.
(٣) سورة ص: ٦٥.
(٤) سورة الحشر: ٢٢.
(٥) سورة الحشر: ٢٣.
(٦) سورة الزمر: ٦٧.
(٧) سورة النمل: ٢٢ ـ ٢٦.

والشاهد أن الهدهد استدل على توحيد العبادة بأن الله ـ تعالى ـ هو وحده الذي يُخرج المخبوء في السمٰوات والأرض، وقد فُسّر ذلك بأنه المطر والنبات[1]، فهذا استدلال بكمال القدرة على أنه لايستحق العبادة غير الله ـ تعالى ـ، ثم أردف ذلك بذكر صفة العلم مستدلاً بها على نفس المطلب.

(١) انظر ترجيح أساليب القرآن لابن الوزير: ص٤٣، ١٥٩ ـ ١٦٣.

obeikandl.com

المبحث الثاني
إبطال الشرك في العبادة

تقدمت دلالة القرآن على تفرد الله ـ تعالى ـ باستحقاق العبادة، استنادًا إلى تفرده بالربوبية والكمال المطلق.

ونعرض هنا إثبات القرآن لهذا المطلب من خلال صورة أخرى لهذا الاستدلال، ألا وهي إبطال عبادة الآلهة المتخذة من دون الله تعالى، وذلك ببيان أمرين:

الأول ـ أنها لاتتصف بشيء من معاني الربوبية.

الثاني ـ أنها متصفة بالنقص المنافي لاستحقاق العبادة.

وسنرى أن هذه الصورة للاستدلال بالربوبية على العبادة هي الأكثر مجيئًا في الكتاب والسنة، وإن كانت في جوهرها لاتختلف عن الصورة السابقة.

المطلب الأول
تجرد الشركاء من الربوبية

تقدم أن أبرز معاني الربوبية: الخلق والملك والتدبير، وفيما يلي عرض لإبطال القرآن عبادة الشركاء، بدلالة تجردهم من هذه المعاني.

أولاً ـ أن الشركاء لايخلقون شيئًا بل يُخلقون:

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الفرقان: ٣.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾[1]. [2]

وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾[3].

والمعنى: أيكون هذا مثل هذا في استحقاق العبادة[4].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾[5].

وفي هذه الآية وآية الفرقان السابقة زيادة معنى على بقية الآيات، وهي أن هذه الآلهة المزعومة مع كونها لاتخلق، فهي نفسها مخلوقة، وفي هذا إشارة إلى أن خالقها أحق منها بالعبادة[6].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾[7].

قال ابن القيم معلقا على هذه الآية: (فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه، وأدلّه على بطلان الشرك؛ فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئًا مع الله طولبوا بأن يُروه إياه، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت إلـهيتها باطلاً ومحالاً)[8].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ

---

(١) سورة الحج: ٧٣.

(٢) انظر تعليق ابن القيم على هذه الآية في إعلام الموقعين: ١/ ٢٣٥، ٢٣٦، والصواعق المرسلة له: ٢/ ٤٦٦، ٤٦٧.

(٣) سورة النحل: ١٧.

(٤) انظر جامع البيان لابن جرير الطبري: ١٤/ ٩٢.

(٥) سورة النحل: ٢٠.

(٦) انظر مفاتيح الغيب للرازي: ٢٠/ ١٥.

(٧) سورة لقمان: ١١.

(٨) الصواعق المرسلة: ٢/ ٤٦٥.

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾[(١)].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[(٢)].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾[(٣)].

ثانيا ـ أن الشركاء ليس لهم نصيب من الملك:

قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾[(٤)].

وهذه الآية كما يقول ابن القيم: أخذت على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سدٍ وأبلغه؛ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وحينئذ فلابد أن يكون المعبود مالكًا للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكًا لمالكها، أو ظهيرًا، أو وجيها ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت انتفت أسباب الشرك وانقطعت موادّه[(٥)].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾[(٦)].

---

(١) سورة الرعد: ١٦.
(٢) سورة فاطر: ٤٠، ونحوها في سورة الأحقاف: ٤.
(٣) سورة يونس: ٣٤.
(٤) سورة سبأ: ٢٢.
(٥) باختصار من الصواعق المرسلة: ٢/ ٤٦١، ٤٦٢.
(٦) سورة الزمر: ٤٣، ٤٤.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾(١)﴾(٢).

ثالثا ـ أن الشركاء ليس لهم شيء من التدبير.

احتج بعض السلف بقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ۖ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾(٣)، على بطلان دعوى النصارى إلهية عيسى ـ عليه السلام ـ؛ حيث كانوا يحتجون عليها بأنه يحي الموتى، ويبرىء الأسقام، ويخلق الطير من الطين، ويحدّث بالغيوب، وغير ذلك مما جعله الله ـ تعالى ـ آية لنبوته، فإن من سلطان الله ـ تعالى ـ وقدرته مالم يعطه عيسى، وذلك مثل تمليك الملوك، واصطفاء الأنبياء، وإيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي، ورزق من شاء الله ـ تعالى ـ بغير حساب، فكل ذلك لم يُسلّط عيسى عليه، ولم يُملّكه، ولو كان إلها لكان ذلك كله إليه، ومعلوم لدى النصارى أن عيسى ـ عليه السلام ـ كان يهرب من الملوك من بلد إلى بلد(٤).

ومن أنواع التدبير التي أبطل الله عبادة الشركاء بالتجرد منها:

---

(١) القطمير: الغشاء الذي على نواة التمرة. انظر معاني القرآن للنحاس: ٤٤٨/٥.

(٢) سورة فاطر: ١٣.

(٣) سورة آل عمران: ٢٦، ٢٧.

(٤) انظر جامع البيان لابن جرير الطبري: ٢٢٧/٣، وقد أسند ابن جرير هذا المعنى عن محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام، وهو من فقهاء السلف وقرائهم، توفي مابين عامي ١١٠ و١٢٠هـ، انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني: ٨١/٩، ٨٢.

١ ـ عدم النفع والضر:

وقد امتلأ القرآن بترديد هذا الدليل على بطلان عبادة غير الله ـ تعالى ـ، ومن أمثلة ذلك:

* قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[1]، وإذا كانت لاتملك ذلك لأنفسها فكيف تملكه لعابديها؟!.

* ماذكره الله ـ تعالى ـ من قول مؤمن يس: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[2].

فهو استدل على بطلان عبادة هذه الآلهة بكونها لاتنفعه وقت حاجته إليها، إذ لاتملك من القدرة ماتُنقذه به من الضرّ لو أصابه الله ـ تعالى به ـ، كما أنها لاتملك من الجاه والمكانة عند الله ـ تعالى ـ مايشفع له في دفع ذلك الضرّ، فبأي وجه تستحق تلك الآلهة العبادة[3].

* ماقصه الله ـ تعالى ـ من استنكار إبراهيم على قومه في قوله: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[4]، أي: أفلا تعقلون أن الذي يستحق العبادة إنما هو مالك النفع والضر، دون من لايملك ذلك.

* ما ذكره الله ـ تعالى ـ في معرض إبطال ألوهية المسيح وأمه حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[5].

---

(١) سورة الرعد: ١٦.
(٢) سورة يس: ٢٣، ٢٤.
(٣) انظر الصواعق المرسلة لابن القيم: ٢/ ٤٩٧.
(٤) سورة الأنبياء: ٦٦، ٦٧.
(٥) سورة المائدة: ٧٦.

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا[1].

فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن هذه الآلهة لاتنفع أحدًا ولاتضره أبدًا، سواء عبدها أم لم يعبدها، وأن ذلك دليل على بطلان عبادتها.

ولايتعارض هذا مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾[2]، فإن هذه الآية إنما أثبتت النفع والضُرّ للمدعو على هيئة اسم مضاف إليه، والشيء يضاف إلى الشيء لأدنى ملابسة، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[3]، في حين نفت الآية التي قبلها قدرة غير الله ـ تعالى ـ على الضر والنفع، حيث كان المنفي فيها هو فعلهم الضر والنفع، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾[4]، وفي هذه الآية قال: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ ولم يقل: يضر أعظم مما ينفع، ولاريب أن بين المعبود من دون الله وبين ضرر عابديه تعلقًا يقتضي الإضافة، كأنه قيل: لمن شره أقرب من خيره، وخسارته أقرب من ربحه، ولو جعل فاعلَ الضر فإنما هو بهذا الاعتبار، وهو أنه سبب فيه، لا أنه هو الذي فعله، وبهذا البيان يظهر مزيد إبطال لإلهية هذه المعبودات، من حيث إنها ليست فقط لاتنفع ولاتضر مطلقا، بل ضررها الحاصل لعابديها أيضًا ليس صادرًا منها[5].

٢ ـ عدم الهداية للحق، أو الاهتداء إليه:

كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ

---

(١) انظر مثلاً: الأنعام: ٧١، يونس: ١٨، ١٠٦، ١٠٧، الإسراء: ٥٧، مريم: ٤٢، الفرقان: ٣، ٥٥، الزمر: ٣٨، طه: ٨٩، الشعراء: ٧٣، الحج: ١٢، ١٣.

(٢) سورة الحج: ١٣.

(٣) سورة سبأ: ٣٣.

(٤) سورة الحج: ١٢.

(٥) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٥/ ٢٧١ ـ ٢٧٤.

يَهِدِّي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ[1] إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾[2].

وكما في قوله ـ تعالى ـ منكرًا على قوم موسى اتخاذهم العجل إلهًا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾[3].

ووجه الدلالة هنا على بطلان الشركاء ظاهر، فإن الهداية بجميع أنواعها من أعظم الضرورات والمطالب، ولابد للمعبود إن كان إلهًا حقًا أن يملكها لعابديه، وحيث انتفت الهداية عن غير الله ـ تعالى ـ دل ذلك على بطلان عبادة غيره.

٣ ـ عدم امتلاك الرزق:

كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾[4].

وكما في قول الخليل ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾[5].

وكما دل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾[6].

---

(١) يهِدِّي: أي يَهْتدي، وعبر عن الشركاء بما يدل على أنها قابلة للاهتداء وبمن التي للعاقل مع كونهم ليسوا كذلك؛ لأنهم نزّلوها منزلة من يعقل، أو لوجود الهداية في بعض الشركاء، كعيسى والملائكة وعزير. انظر زاد المسير: ٤/ ٣١، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٥/ ٢٧، وقد فسر الفراء الاهتداء في آخر الآية بأنه الانتقال من مكان إلى مكان، انظر معاني القرآن: ١/ ٤٦٤، ولايخفى بعدُه، وعدم توافقه مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾.

(٢) سورة يونس: ٣٥.

(٣) سورة الأعراف: ١٤٨.

(٤) سورة النحل: ٧٣.

(٥) سورة العنكبوت: ١٧.

(٦) سورة الملك: ٢١.

أي مَن مِن شركائكم الذين تعبدون من دون الله ـ تعالى ـ يستطيع أن يرزقكم إن أمسك الله ـ تعالى ـ رزقه عنكم[1]؟ فإن كنتم تعلمون أنه لا رازق إلا الله فالتزموا ألا تعبدوا غيره.

وكما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

٤ ـ عدم النصرة:

وقد نبه الله ـ تعالى ـ إلى هذه الدلالة في مواضع عدة، كما في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[3]، وقوله في وصف الشركاء: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾[4]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ﴾[5]، وجاء الاحتجاج صراحة على بطلان عبادة الآلهة بدلالة حلول العذاب بعابديها جزاء عبادتها، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[6].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[7]،

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٤٢١.
(٢) سورة الروم: ٤٠.
(٣) سورة الملك: ٢٠.
(٤) سورة الأعراف: ١٩٢.
(٥) سورة الأعراف: ١٩٧.
(٦) سورة الأحقاف: ٢٧، ٢٨.
(٧) سورة هود: ١٠٠، ١٠١.

وهذان السياقان يدلان على بطلان الشرك في العبادة من وجهين:

الأول ـ أنها لو كانت حقًا ماعُذّبوا.

الثاني ـ أن معبوداتهم لم تدفع عنهم العذاب، فدل على أنها ليست أهلاً لأن تعبد.

obeikandl.com

المطلب الثاني
إبطال عبادة الشركاء بدلالة اتصافهم بالنقص

سبقت الإشارة إلى أن من لم يتصف بالكمال المطلق لزمه الاتصاف بالنقص، وأن هذا منافٍ للتعبد فطرة وعقلاً[1]، والقرآن مملوء بالاستدلال العقلي على بطلان الشرك من هذا الباب. وهو مع دلالته على بطلان عبادة غير الله ـ تعالى ـ، يدل دلالة صريحة على ثبوت صفات الجلال والكمال للإله الحق، كما سبق بيانه[2]. ومن الإشارت الإجمالية إلى هذا الدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾[3].

ووجه الشاهد في هذه الآية: أن تسمية هذه الآلهة المجعولة شركاء لله ـ تعالى ـ المأمور به في الآية يكشف حقيقة حالها؛ فإنها إن سُمّيت بأسماء الإله الحق، كالحي القيوم الخالق البارىء، ظهر زيفها، من عدم موافقة هذه الأسماء لحقيقتها، وإن سميت بأسمائها الحقيقية، كالحجارة والأصنام وغيرها من سائر المعبودات من دون الله، ظهر بطلان عبادتها بما دلت عليه أسماؤها الحقيقية من نقص.

يقول ابن تيمية معلقا على هذه الآية:

(قد حام حول معنى هذه الآية كثير من المفسرين، فما شفو عليلاً، ولا أرووا غليلاً، وإن كان ماقالوه صحيحا، فتأمل ما قبل الآية

---

(١) انظر ص: ٣٧١.

(٢) انظر ص: ٣٧٢.

(٣) سورة الرعد: ٣٣.

ومابعدها يُطلعك على حقيقة المعنى، فإنه ـ سبحانه ـ يقول: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1]، وهذا استفهام تقرير، يتضمن إقامة الحجة عليهم، ونفي كل معبود مع الله، الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت، بعلمه وقدرته، وجزائه في الدنيا والآخرة، فهو رقيب عليها، حافظ لأعمالها، مجاز لها بما كسبت، فإذا جعلتم أولئك شركاء فسموهم إذًا بالأسماء التي يسمى بها القائم على كل نفس بما كسبت؛ فإنه ـ سبحانه ـ يسمى بالحي القيوم، المحي المميت، السميع البصير، الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، ووجود كل شيء به، فهل تستحق آلهتكم اسمًا من تلك الأسماء؟

فإذا كانت آلهة حقا فسموها باسم من هذه الأسماء، وذلك بهتٌ بين، فإذا انتفى عنها ذلك عُلم بطلانها كما عُلم بطلان مسمّاها.

وأما إن سمّوها بأسمائها الصادقة عليها، كالحجارة وغيرها من الجمادات، أو البقر وغيرها من الحيوانات، أو الشياطين، أو الكواكب المسخرات تحت أوامر الرب، وغيرها من الأسماء التي هي أسماء مخلوقات محتاجة، مدبرة مقهورة، فهذه أسماؤها الحق، وهي تبطل إلـٰهيتها؛ لأن الأسماء التي من لوازم الإلـٰهية مستحيلة عليها، فظهر أن تسميتها آلهة من أكبر الأدلة على بطلان إلـٰهيتها، وامتناع كونها شركاء لله ـ عز وجل ـ)[2].

ومن صفات النقص التي نبه القرآن إلى دلالتها على بطلان عبادة الموصوف بها مايلي:

أولاً ـ عدم السمع والبصر:

وهذا مما استدل به إبراهيم ـ عليه السلام ـ على أبيه في بطلان

---

(١) سورة الرعد: ٣٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/١٩٦، ١٩٧ [بتصرف].

عبادته الأصنام، حيث قال فيما أخبر الله ـ تعالى ـ عنه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾[1]، وعلى قومه حيث سألهم عن آلهتهم: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢﴾[2]، وجعلها الله ـ تعالى ـ علامة على بطلان دعاء غيره، حيث يقول: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾[3]. ويقول ـ عز وجل ـ: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾[4]. [5]

ويقول ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾[6]. [7]

ووجه الاستدلال في هذه الآيات ظاهر من بيان أن هذه الآلهة المدعوة من دون الله ـ تعالى ـ هي أقل حالاً ممن يدعوها ويستغيث بها، وهم أقدر منها على القيام ببعض مصالحهم، حيث فقدت الجوارح التي هي أدوات الكسب، التي يُناط بها النفع والضر، فكيف يصح أن تُرفع إلى مقام الألوهية؟ مع أن الحس والمشاهدة يشهدان بكونها دون الصفات البشرية؟[8].

---

(١) سورة مريم: ٤٢.

(٢) سورة الشعراء: ٧٢.

(٣) سورة فاطر: ١٤.

(٤) سورة الأعراف: ١٩٥.

(٥) انظر تعليق ابن القيم على هذه الآية في إعلام الموقعين: ١/ ١٩٩، ٢٠٠.

(٦) سورة الأعراف: ١٩٨.

(٧) في المراد بهذه الآية قولان كلاهما يحتمله السياق: الأول ـ أنهم الأصنام، ورُوي عن السدي. والثاني ـ أنهم المشركون، وروي عن مجاهد، والاستشهاد بالآية هنا على الأول، انظر جامع البيان: ٩/ ١٥٢، ١٥٣.

(٨) انظر تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ٩/ ٥٢٩.

ثانيا ـ عدم القدرة على الكلام.

وقد نبّه الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى دلالة هذا الوصف على نقص الأصنام، مما يدل على بطلان إلـٰهيتها، حيث قال لها فيما أخبر الله ـ تعالى ـ عنه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾[1]، ونبه قومه إلى ذلك حيث قال لهم فيما أخبر الله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[2]. وقال ـ تعالى ـ عن قوم موسى وعبادتهم العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾[3].

فاستدل بعدم مخاطبته لهم على بطلان عبادته وألوهيته. ومثله قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[4].

وفي هذا المعنى ماضرب الله ـ تعالى ـ من المثل لنفسه ولما يُعبد من دونه، حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾[5].

قال ابن القيم: (فالصنم الذي يُعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لايعقل ولاينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللسان[6]، ومع هذا فهو عاجز لايقدر على شيء البتة، وعلى هذا فأينما أرسلته لايأتيك بخير، ولايقضي لك حاجة، والله ـ سبحانه ـ حي

---

(١) سورة الصافات: ٩٢، وقد قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ ذلك تهكما واستهزاءً بالأصنام، واحتقارًا لشأنها، ولايمنع هذا من تضمن الآية للدلالة المذكورة.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٣.

(٣) سورة طه: ٨٩.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٨.

(٥) سورة النحل: ٧٦.

(٦) كذا، ولعلها: اللساني.

قادر متكلم، يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد)[1].

ثالثا ـ حاجتها للطعام والشراب، وأنها مخلوقة مفتقرة فانية.

وسبب كون الطعام والشراب صفة نقص: هو منافاتها الغنى المطلق، والحياة الكاملة، واستلزامها كثيرًا من الآفات، كقضاء الحاجة، والجوع والعطش، والموت، وغير ذلك من اللوازم التي لاتليق بمقام الألوهية، لذلك نزّه الله ـ تعالى ـ نفسه عنها في قوله: (وهو يُطعمُ ولايَطعَم)، على قراءة من قرأ الفعل الثاني بفتح الياء والعين، وهي قراءة سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش، وهي موافقة لأحد الأقوال في تفسير الصمد، وهو أنه الذي لاجوف له، ولايأكل الطعام[2]. وبهذه الحجة أبطل الله ـ تعالى ـ ألوهية عيسى ابن مريم التي ادعاها النصارى، حيث يقول ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾[3].

فهذه الآية الكريمة أبطلت ألوهية المسيح وأمه من وجهين كما يقول ابن القيم:

(الأول ـ حاجتهما إلى الطعام والشراب، الدالة على ضعف بنيتهما عن القيام بنفسيهما، ومَن هذا حاله لايكون إلـٰها، إذ من لوازم الإلـٰه أن يكون غنيا.

الثاني ـ استلزام ذلك حصول الفضلات القذرة، التي يتنزه عنها

---

(١) إعلام الموقعين: ١/ ٢١٢.

(٢) انظر أضواء البيان: ٢/ ١٦٦، ١٦٧، وانظر هذه القراءة الشاذة في إتحاف فضلاء البشر للبنا: ٢/ ٦، حيث ذكرها عن الحسن والمطوّعي.

(٣) سورة المائدة: ٧٥.

مقام الألوهية، ولهذا ـ والله أعلم ـ كُنّي عنها في الآية بلازمها الذي هو أكل الطعام.

فكيف يليق بالرب ـ سبحانه ـ أن يتخذ صاحبة وولدًا من هذا الجنس؟ ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لايأكل ولايشرب، ولايكون منه الفضلات المستقذرة التي يُستحيا منها، ويُرغب عن ذكرها)[1].

وأما الموت، فهو من لوازم الطعام والشراب كما سبق، ولاتخفى منافاته للاتصاف بكمال الحياة اللائقة بمقام الألوهية، فنزه الله ـ تعالى ـ نفسه من ذلك بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾[2]، كما أشار إلى دلالته على بطلان ألوهية المتصف به كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾[3].

ومعنى كونها أمواتا في هذه الآية: أنها جمادات لاحياة فيها، فكل ماكان خاليا من الحياة صح وصفه بالموت، ولو لم يقبل الحياة أصلاً، وكان أنقص مماهو موصوف بالحياة[4].

ولاشك أن في هذا الدليل أبلغ الرد على عباد القبور، والمستغيثين بالموتى، وعلى من يعتقد فيهم القدرة على النفع والضر، أو التصرف والتدبير لشيء من أحوال الخلق.

وقد استدل نبينا ﷺ بهذا الوصف على بطلان ألوهية المسيح ـ عليه السلام ـ كما هي دعوى النصارى.

---

(١) الصواعق المرسلة: ٢/ ٤٨٢، ٤٨٣، [بتصرف].

(٢) سورة الفرقان: ٥٨.

(٣) سورة النحل: ٢٠، ٢١.

(٤) انظر التدمرية لابن تيمية: ص١٦٠.

فقد روى ابن جرير الطبري بإسناده عن الربيع[1] قال: إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى ابن مريم، وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان، لا إله إلا هو، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، فقال لهم النبي ﷺ: «الستم تعلمون أنه لايكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟».

قالوا: نعم.

قال: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لايموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟».

قالوا بلى.. إلى آخر الحديث[2].

وقد أكّد الله ـ تعالى ـ بطلان ألوهية عيسى ـ عليه السلام ـ بالتنبيه إلى بشريته، وأنه كغيره من الناس، يعتريه مايعتريهم من الأحوال والأطوار، حتى قال ابن جرير في قوله ـ تعالى ـ في وصف عيسى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾[3]: إن الله ـ تعالى ـ إنما أخبر بأنه يتكلم كهلاً، مع أن الغالب أن الناس يتكلمون كذلك، تأكيدًا على مماثلته لغيره من الناس، وأنه كان يعاني مايعانيه غيره من التقلب في الأحداث طفلاً ثم كهلاً، ومرور الأزمنة والأيام عليه من صغر إلى كبر، ومن حال إلى حال، مما لايجوز على الإله الحق[4].

---

(١) هو ابن أنس البكري، روى عن أنس بن مالك وأبي العالية والحسن البصري، توفي سنة ١٣٩ أو ١٤٠هـ. انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٢٠٧.

(٢) جامع البيان: ٣/ ١٠٨، ١٠٩، والحديث مرسل، وقد ذكره ابن تيمية، في الجواب الصحيح: ١/ ١٩٦.

(٣) سورة آل عمران: ٤٦.

(٤) انظر جامع البيان: ٣/ ٢٧٢.

رابعًا ـ أفولها واحتجابها:

وبهذا احتج إبراهيم ـ عليه السلام ـ على بطلان عبادة قومه للكواكب، كما قص الله ـ تعالى ـ عنه ذلك في قوله: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي[1] فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ . . . الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ[2] ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾[3]، ويتبين وجه دلالة الأفول على بطلان عبادة الآفل بأمور، منها:

١ ـ أن الأفول مغيب واحتجاب عن الخلق، والشأن في الإله الحق أن يكون دائم الشهود والمرافقة لخلقه، ليدبرّ شؤونهم، ويقوم على مصالحهم، فدل مغيب الكوكب والشمس والقمر على بطلان عبادتها؛ لأنها لاتُغني شيئًا عن عابديها حال مغيبها[4].

---

(١) هل كان إبراهيم في قوله عن الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ناظرًا يبحث عن الحقيقة وينشدها، أم أنه كان مناظرًا لقومه يريد إقامة الحجة عليهم، مع اطمئنان قلبه ومعرفته لربه؟ قولان للعلماء، وأكثر المحققين على الثاني، وممن رجح الأول ابن جرير في تفسيره: ٧/ ٢٥٠ وابن الوزير اليماني في البرهان القاطع: ص١٠٦ ومابعدها، وممن رجح الثاني الحافظ ابن كثير في تفسيره: ٢/ ١٦٩، ١٧٠، والشنقيطي في أضواء البيان: ٢/ ١٨٠، ونص على أن القرآن يبطل القول الأول، وإن كان لفظ الآية يحتمل القولين.

(٢) التحقيق أن قول إبراهيم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ داخل في هذه الحجة، خلافًا لمن زعم أن الحجة مختصة بقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [سورة الأنعام: ٨١]، انظر آداب البحث والمناظرة للشنقيطي: ٢/ ٨٢، ٨٣.

(٣) سورة الأنعام: ٧٤ ـ ٨٣.

(٤) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور: ٧/ ٣٢٠، ٣٢١.

٢ ـ ماذكره صاحب تفسير المنار، من أن العاقل السليم الفطرة والذوق، لايختار لنفسه حب شيء يغيب عنه، ويوحشه فقد جماله وكماله، حتى في الحُب الذي هو دون حب العبادة، فكيف بحب العبادة الذي هو أعلى الحب وأكمله؟؛ فإنه لايجوز أن يكون إلا للرب الحاضر القريب، السميع البصير الرقيب، الذي لايغيب ولايأفُل، ولاينسى ولايذهل، الظاهر في كل شيء بآياته وتجليه، الباطن في كل شيء بحِكمته ولطفه الخفي فيه[١].

وقد زعم كل من المتفلسفة وأهل الكلام أن الأفول في هذه الآيات معناه الحركة والتغيّر، وأن إبراهيم استدل على بطلان ربوبية الكواكب بطريقة الأعراض والأجسام، حيث جعل حلول الحوادث بهذه الكواكب دليلاً على حدوثها، على قول المتكلمين[٢]، أو أنه جعل أفولها دليلاً على إمكانها على قول الفلاسفة[٣].

وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول من الوجوه التالية:

١ ـ لو كان قول إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ معناه: هذا رب العالمين، لكانت الحجة عليهم لا لهم: لأنه حينئذ لم تكن الحركة عنده مانعة من كونه رب العالمين، وإنما المانع الأفول[٤].

---

(١) انظر تفسير المنار: ٧/ ٥٥٨.

(٢) انظر تفسير الرازي: ١٣/ ٥٤، وانظر ردّ شيخ الإسلام على استدلال الرازي بهذه الآيات على نفي قيام الحوادث بذات الله ـ تعالى ـ في درء تعارض العقل والنقل: ٢/ ٢١٦.

(٣) انظر مناهج الأدلة لابن رشد: ص٥٢، وانظر ردّ ابن تيمية عليه في درء تعارض العقل والنقل: ٩/ ٨٢، ومابعدها. وانظر أيضا ردّ ابن تيمية على القرامطة في استدلالهم بهذه الآيات على مذهبهم الفاسد في درء تعارض العقل والنقل: ١/ ٣١٥ ـ ٣١٧.

(٤) انظر منهاج السنة: ٢/ ١٩٦.

٢ ـ أن الأفول باتفاق أهل اللغة والتفسير هو المغيب والاحتجاب، لا الحركة والانتقال. ويطلق على ذهاب ضوء القمر والكواكب بطلوع الشمس، كما يطلق على غروب هذه الأجرام[١].

٣ ـ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لو استدل بالحركة لكان من حين بزغت الكواكب استدل بذلك، ولم ينتظر حتى المغيب، ولكان نفس الحركة التي يشاهدها من حين تطلع إلى أن تغيب هي الأفول.

٤ ـ أن إبراهيم لم يكن يعني بقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أنه رب العالمين على أي وجه قاله، ولا اعتقد ذلك قومُه ولاغيرهم، وإنما كان الذي يقول ذلك يتخذه ربًا يعبده لينال بذلك أغراضه، كما كان عباد الكواكب يفعلون ذلك، وكان قومه من هؤلاء، لم يكونوا جاحدين للصانع، بل مشركين به[٢].

وبهذا يظهر أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ إنما كان بصدد إبطال عبادة قومه لغير الله ـ تعالى ـ، وأنه إنما احتج بالأفول على هذا المطلب لاغير، وأن الأفول والمغيب والاحتجاب صفات نقص تدل على بطلان عبادة من يتصف بها.

وإذا تقرر هذا، فقد يرد سؤال عن كيفية الجمع بينه وبين قول

---

(١) انظر شرح حديث النزول لابن تيمية: ص٤٢٣.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل: ٨/٣٥٦، وانظر هذه الوجوه في درء تعارض العقل والنقل: ١/١٠٩ ـ ١١٢، ٣١١ ـ ٣١٧، و٨/٣٥٥، ٣٥٦، ومنهاج السنة: ٢/١٩٤ ـ ١٩٦، ومجموع الفتاوى: ٦/٢٥٣ ـ ٢٥٦، والرد على المنطقيين: ٣٠٤ ـ ٣٠٧، وشرح حديث النزول: ٤٢٣ ـ ٤٢٦. وانظر كلام الدارمي في ردّه على بشر المريسي في عقائد السلف: ٤١٢، ٤١٣. وموافقة ابن الوزير لابن تيمية في هذا النقد في كتابه البرهان القاطع: ص١٠٣، ١٠٤، مع مخالفته له في أن إبراهيم كان ناظرًا لامناظرًا كما يرجح ابن تيمية وغيره.

النبي ﷺ عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ فيما رواه مسلم بسنده عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ: «حجابه النّور» وفي رواية «النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1]، وكذلك ماجاء عن بعض السلف في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[2] أنه الله ـ تعالى ـ[3].

والجواب: أنه لا إشكال هنا البتة؛ فإن الله ـ تعالى ـ رقيب شهيد على خلقه لم يغب عنهم طرفة عين، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾[4]، وكما قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة: «وأنت الباطن فليس دونك شيء»[5]، وليس احتجابه عن خلقه كاحتجاب الكواكب وأفولها ومغيبها، وإنما احتجب ـ سبحانه وتعالى ـ بحجاب النور، للحكمة التي بينها الحديث، وهي أن يحترق خلقه بسبحات[6] وجهه ـ تعالى وتقدّس ـ، فاحتجابه ـ تبارك وتعالى ـ إنما كان لكمال عظمته وهيبته وجلال أنواره، ولنقص الخلائق وقصورهم عن إطاقة تلك الأنوار القدسية، روى الإمام مسلم بسنده عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنّى

---

(١) الصحيح، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لاينام، وفي قوله: حجابه النور...، (١/ ١٤١)؛ حديث رقم: (١٧٩).

(٢) سورة البقرة: ٣.

(٣) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٤/ ٥١.

(٤) سورة البروج: ٩.

(٥) الصحيح، كتاب الذكر، باب مايقول عند النوم، (٤/ ١٦٥٥)، حديث رقم: (٢٧١٣).

(٦) قال النووي: (قال صاحب العين والهروي وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين: معنى سبحات وجهه: نوره وجلاله وبهاؤه)، شرح صحيح مسلم: ٣/ ١٣، ١٤.

أراه؟»[1]، فعدم رؤية الباري ـ تعالى ـ رؤيةً حسية في الدنيا إنما انتفت لقيام مانع في الأبصار، لا لمغيب العزيز الجبار، وسوف يزول هذا المانع بقدرة الله ـ تعالى ـ في الآخرة، في حق المؤمنين الموعودين برؤية ربهم في الجنة.

أما الإخبار عن الله ـ تعالى ـ بالغياب، المأخوذُ من تفسير بعض السلف لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، فقد يُتوهم تعارضه مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾[2]، ومع ماتقرر سابقا من أن الغياب والأفول والاحتجاب صفة نقص جعلها الخليل دليلاً على بطلان عبادة الكوكب.

والواقع ألا تعارض إطلاقا، وذلك أن اسم الغيب والغائب من الأمور الإضافية، يراد به ماغاب عنّا فلم ندركه، ويراد به ماغاب عنا فلم يدركنا، والله ـ سبحانه ـ ليس غائبا، ولكن لما لم يره العباد كان غيبا، ولهذا يدخل في الغيب الذي يؤمَن به وليس هو بغائب؛ فإن الغائب اسم فاعل، وأما الغيب فهو مصدر، فتسميته باسم المصدر دون الفاعل فيه تنبيه على النسبة إلى الغير، أي ليس هو بنفسه غائبا، إنما غاب عن غيره أو غاب غيره عنه، فالمعنى في كونه غيبا هو انتفاء شهودنا له[3].

خامسًا ـ عجزها عن الدفاع عن نفسها والكيد بأعدائها.

وهذا معنى قوله ـ تعالى ـ في وصف الشركاء: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾[4] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ

---

(١) الصحيح، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: نور أنّى أراه...، (١/ ١٤١)، حديث رقم: (١٧٨).

(٢) سورة الأعراف: ٧.

(٣) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٤/ ٥٢، ٥٣.

(٤) سورة الأعراف: ١٩٢، ١٩٧.

مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1]، وبهذا الوصف فيها أراد الخليل ـ عليه السلام ـ أن يدل قومه على بطلان عبادتها حين حطمها، كما أخبر الله ـ تعالى ـ عنه بقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾[2] وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[3].

وقد رُوي في السيرة أن عمرو بن الجموح[4] كان قد اتخذ في داره صنمًا من خشب يقال له: مناة، فكان ابنه معاذ يسرى بالليل هو ومعاذ بن جبل على ذلك الصنم فيطرحونه منكسًا على رأسه في حفرة يتخذها الناس للعذرة، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم، من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ فيأخذه ويغسله ويطيبه، ثم يعود المعاذان إلى فعلهما فيه، فلما أكثرا عليه، جاءه عمرو بسيفه فعلقه عليه وقال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ماترى؛ فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك، فغدا عليه الشابان، فأخذا السيف من عنقه، ثم قرنا به كلبا ميتا، وألقياه في بئر، فلما رآه عمرو على تلك الحال ثاب إلى عقله، وأسلم وحسن إسلامه، وأنشأ يقول في صنمه:

والله لو كنت إلـٰها لم تكنْ ... أنت وكلب وسط بئر في قرنْ
أفٍّ لملقـاك إلـٰهـا مستـدن ... الآن فتشناك عن سوء الغبن[5]

وأما عجز الآلهة عن الكيد بأعدائها، فقد اتخذه الأنبياء برهانا

---

(١) سورة الأنبياء: ٤٣.
(٢) سورة الصافات: ٩٣.
(٣) سورة الأنبياء: ٥٨ ـ ٦٣.
(٤) هو الصحابي الجليل عمرو بن الجَموح ابن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن سلمة الأنصاري السلمي، من سادات الأنصار، استشهد يوم أحد، وبشره النبي ـ ﷺ ـ بالجنة. انظر الإصابة: ٢/ ٥٢٢، ٥٢٣.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٤٥٢، ٤٥٣ باختصار.

على بطلانها، واحتجوا به على المشركين، حيث تحدوهم غاية التحدي أن يُلحقوا بهم هم وشركاؤهم أدنىٰ أذى، وذلك على الرغم مما صرح به الرسل من احتقارٍ وتسفيه لشأن هذه الآلهة ومن يعبدها، ووصفها بما هي أهله من العجز والنقص، كما ذكر الله ـ تعالى ـ ذلك عن بعض أنبيائه:

فقال عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾[1].

وقال عن هود ـ عليه السلام ـ حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾[2].

وقال في حق إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[3]، وأمر نبيه محمدًا ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾[4].

سادسًا ـ أنها ترد النار.

كما دل عليه قوله ـ تعالى ـ في كفار قريش: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا

---

(١) سورة يونس: ٧١.
(٢) سورة هود: ٥٤ ـ ٥٦.
(٣) سورة الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢.
(٤) سورة الأعراف: ١٩٥، ١٩٦.

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾[1].

وهذا الوصف في الحقيقه ليس دليلاً عقليا مستقلاً قائما بذاته على بطلان إلٰهية هذه الأصنام، أو غيرها من المعبودات التي تَرِد النار مع عابديها؛ لأن دلالته إذًا تكون متوقفة على ورود هذه الآلهة المزعومة النار، وهي لَمّا تَرِد، والحاصل أن الخطاب بهذه الآية وُجّه إلى الكفار في الدنيا قبل حصول الورود، فلذلك لايقال إنّه دليل تامٌّ مستقل على بطلان الآلهة إلا بعد ورودها النار مع عابديها، وشهودهم ذلك.

ويقال عن دلالة هذه الآية ـ كما عبر سيد قطب ـ: إنه (برهان وجداني، ينتزع من هذا المشهد المعروض عليهم في الدنيا، وكأنما هو واقع في الآخرة)[2].

فالآية إذًا أُريد بها الزجر والتهديد في الدنيا، بعرض مشهد القيامة، والتبكيت والتوبيخ في الآخرة بعد حصول الورود.

ومما يدل على ذلك سياق الآيات قبلها وبعدها، فإنه ذكر قبلها قيام الساعة وما يحصل فيها من بهوت الكفار، وذعرهم، ودعوتهم بالويل والثبور، وتحسرهم على تفريطهم، ثم وُجّه الخطاب لهم ببيان مآلهم ومصيرهم، هم وآلهتهم، ثم جاءت هذه الآية موبخة لهم ومبكّتة، زيادةً في التنكيل بهم، ثم جاء وصف حالهم في النار.

فقال ـ تعالى ـ في هذه الآيات: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ

---

(١) سورة الأنبياء: ٩٨، ٩٩.

(٢) ١٧/ ٢٣٩٩.

فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[1].

فظاهرٌ من السياق إذن أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، أنه من تمام مايقال لهم يوم القيامة، توبيخا وتقريعا لهم على ماكان منهم من عبادتها.

وإذ تقرر هذا فلا يتوجه الخطاب لهم في الدنيا بهذه الآية إلا على سبيل التخويف والتهديد، لاعلى سبيل الاحتجاج والاستدلال.

أللهم إلا أن يقال: إنه لامانع من توجّه هذا الاستدلال والاحتجاج عليهم باعتبار انضمامه إلى الدلائل والبراهين الأخرى القاطعة، التي دلت على بطلان عبادتها، وعلى صدق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأنه لايخبر إلا بحق، وأن مايذكره من ورودها النار واقع لامحالة، لما ثبت من صدقه وتأكُّد نبوّته، فحينئذ يكون الخطاب موجهًا إليهم في الدنيا على سبيل الاحتجاج.

ومما يؤيد هذا التوجيه، أن كفار قريش لم يجادلوا النبي ﷺ في هذه الحجة من هذه الجهة، وما ورد عنهم البتة أنهم قالوا له: كيف تحتج علينا بأمر لم نسلّمْه لك بعد، ولم نؤمن لك فيه. بل إنهم ذهبوا يجادلونه في أمر آخر غير هذه المسألة، وهو أنه إذا كان كل من عُبد من دون الله سيدخل النار مع من عبده، فكيف الشأن بعيسى ابن مريم وقد عبده النصارى؟ حتى أنزل الله ـ تعالى ـ في الرد عليهم الآية التي بعد هذا السياق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[2].

فلاشك أن انصرافهم عن الطعن في الدليل على النحو الأول إلى التشغيب عليه على هذا النحو دال على أنهم لم يروا فيه مطعنًا في أصل دلالته، لما اقترن به واحتف من دلائل أخرى تدل على صدق

---

(١) سورة الأنبياء: ٩٧ ـ ١٠٠.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠١.

النبي ﷺ وبطلان الأصنام، أو أنهم علموا أنه ما وُجّه إليهم على سبيل الدلالة المستقلة الفورية على بطلان الآلهة، كما تقدم آنفا.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة ليست دليلاً تامًا مستقلاً على بطلان الآلهة، أو على الأقل موقوفة الدلالة على حصول الورود يوم القيامة، فما سبب إيرادها في هذا البحث الخاص بالأدلة العقلية؟

والجواب أنه ماكان لهذه الآية أن تُورد في هذا البحث، لولا ماذكره الرازي في تفسيره لها من شبهة خطيرة، أظهرتها بمظهرٍ ضعيف، لايليق بأدلة القرآن وحججه المنزلة من لدن حكيم خبير. فقد قال الرازي عند تفسيره هذه الآية مانصه:

(هٰهنا سؤال: وهو أن قوله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ ـ لكنّهم وردوها، فهم ليسوا آلهة ـ حجة، وهذه الحجة إما أن يكون ذكَرها لنفسه أو لغيره، فإن ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه؛ لأنه كان عالما بأنها ليست آلهة، وإن ذكرها لغيره فإما أن يذكرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب نبوته؛ فإن ذكرها لمن صدّق بنبوته فلا حاجة إلى هذه الحجة؛ لأن كل من يصدق نبوته لم يقل بإلٰهية هذه الأصنام، وإن ذكرها لمن يكذب نبوته فذلك المكذب لايسلّم أن تلك الآلهة يردون النار، ويكذبونه في ذلك، فكان ذكر هذه الحجة ضائعا كيف كان، وأيضا فالقائلون بإلٰهيتها لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم، وإلا لكانوا مجانين، بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء، وذلك لايمنع من دخولها في النار.

وأُجيبَ عن ذلك بأن المفسرين قالوا: المعنى لو كان هؤلاء ـ يعني الأصنام ـ آلهةً على الحقيقه ماوردوها، أي: مادخل عابدوها النار)[1].

---

(١) التفسير الكبير: ٢٢/ ٢٢٥.

ولايخفى ضعف الجواب الذي أورده عن هذه الشبهة[1]، فإن قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ يشمل العابد والمعبود، وحتى على فرض صحة ماذكره عن المفسرين، فإن الشبهة لاتزال قائمة، والجواب الصحيح هو ماتقدم ذكره من أن الخطاب في الآية إنما يتجه إلى المشركين بعد ورودهم النار مع آلهتهم، وأنه قبل ذلك يكون بمثابة الوعيد والتهديد لهم، والله أعلم.

وأما الشبهة الثانية التي جاءت في كلام الرازي، وهي أن المشركين ماكانوا يعتقدون ربوبية هذه الآلهة، وإنما عبدوها للتقرب، وأن ذلك لايمنع دخولها النار! فلا أدري ماوجه السؤال فيها أصلاً؟ فإن ورود هذه الآلهة النار على سبيل الإهانة والتبكيت لعابديها برهان على بطلان عبادتها دون شك، سواء اعتقد عابدوها فيها الربوبية، أو عبدوها للتقرب والشفاعة، فالدليل مستقيم على كلا الحالين.

وماذكره من كونهم إنما عبدوها للتقرب هو الحق الذي شهد له القرآن، ولكنه لايتعارض مع دلالة الآية بحال، والله أعلم.

وبعد، فهذه بعض الإشارات من الكتاب والسنة إلى دلالة النقص على بطلان الألوهية، وبالجملة فكل ماتقدم في المطلب السابق من الاستدلال على بطلان عبادة آلهة مع الله بعدم اتصافها بشيء من معاني الربوبية؛ فإنه يدخل في دلالة اتصافها بالنقص على بطلان ألوهيتها، إذ فقدان الاتصاف بمعاني الربوبية ولوازمها من أعظم النقص المنافي لكمال الألوهية.

---

(١) هذا من أوضح الأمثله لما قيل من أن الرازي يورد الشبهة نقدًا ويردها نسيئة.

المطلب الثالث

إبطال احتجاج المشركين بالشفاعة والزلفى

بالتأمل في الأدلة التي جاءت في القرآن الكريم لإبطال عبادة غير الله ـ تعالى ـ نعلم أن الحجة التي يمكن أن يدلي بها المشركون في العبادة لاتعدو أحد أمرين:

الأول ـ أن معبودهم قد شارك الله ـ تعالى ـ في بعض صفات الربوبية كالنفع والضر.

الثاني ـ أن معبودهم يقربهم إلى الله ـ تعالى ـ، ويشفع لهم عنده.

وغالب ما جاء في القرآن من إبطال الشرك في العبادة متجه إلى الأمر الأول، لا لأن الغالب على المشركين اعتقاد الربوبية في الآلهة، فإن القرآن قد صرح بأنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية على وجه الإجمال، فلم يدّعوا وجود خالقين للعالم، أو أن لله ـ تعالى ـ شريكا في تدبير الأمر، بل الصواب أن هذا لم يقل به أحد من عقلاء بني آدم على الإطلاق، حتى فرعون في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[1] لم يكن يدّعي أنه خالق العالم ومدبّره، وإنما كان ذلك بمعنى أنه يجب على قومه طاعته والانقياد له، وعدم الاشتغال بطاعة غيره[2]، لكن قد يحصل منهم اعتقاد بعض خواص الخالق ثابتةً للمخلوق على سبيل التبع لا الاستقلال، كقول مشركي العرب: لبيك لاشريك لك، إلا شريكًا هو

---

(١) سورة النازعات: ٢٤.

(٢) انظر تفسير الرازي: ٢٢/ ٦٤.

لك، تملكه وما ملك[1]، وكاعتقاد النفع والضر، بل يمكن القول إنه لايكاد يخلو عابد لغير الله ـ تعالى ـ من اعتقاد بعض معاني الربوبية فيه[2]، ولو النفع والضر على أقل تقدير، حتى ولو عبده على سبيل التقرب والتزلف، فإن اعتقاده أنه يملك إجابته، ويجلب له منفعة، أو يدفع عنه مضرّة، على أي وجه كان ذلك، شركٌ في الربوبية دون شك، وإن لم يعتقد مساواته لرب العالمين في الخلق والملك والتدبير، فكان غالب مافي القرآن من البراهين على بطلان الشرك في الألوهية منصبًا على الاستدلال بعدم اتصاف الشركاء بالربوبية؛ لأن انفراد الله ـ تعالى ـ بها وبالكمال المطلق دون غيره أعظم الأدلة وأوضحها وأظهرها دلالة على وجوب إفراده بالعبادة دون غيره، فكان للمبالغة في نفي ذلك عن الآلهة المتخذة من دون الله ـ تعالى ـ مع كون عابديها غالبا لايعتقدونه فيها ـ دلالةٌ زائدة على مجرد إثبات عدم استحقاقها العبادة، وهي أنها لاتصلح عبادتها أصلاً ولاتصح، وأن ذلك قبيح ممتنع في العقول السليمة والفطر المستقيمة، ولهذا امتنع كل الامتناع أن يشرع الله ـ تعالى ـ أو يأذن في عبادة غيره ولو على سبيل التقرب والتزلف.

وهذا هو الأمر الثاني الذي يحتج به المشركون على عبادة غير الله ـ تعالى ـ، وهو الذي عليه أكثر المشركين في العبادة، كما ذكر الله ذلك عنهم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[3]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[4].

---

(١) انظر تفسير الطبري: ١٣/ ٧٩.

(٢) انظر حجة الله البالغة للدهلوي: ١/ ١٨٤.

(٣) سورة الزمر: ٣.

(٤) سورة يونس: ١٨.

وماتقدم في هذا الفصل كان في سبيل إبطال عبادة غير الله ـ تعالى ـ بالحجة الأولى، أما الحجة الثانية فتحتاج إلى مزيد بيان لإبطالها؛ فإن صاحبها ينكر أن يكون معبوده متصفًا بشيء من الربوبية، لكنه يزعم أن عبادة غيره على سبيل التقرب والوساطه سائغة، وأنها ربما تكون أولى من عبادة الله ـ تعالى ـ مباشرة، جريًا على عادة الناس مع ملوك الأرض في اتخاذ الوسائط والشفاعات، التي هي أعظم أسباب حصول المطلوب منهم، أو لأن العابد يكون أقل شأنا وأحقر منزلة من أن يتوجه مباشرة بالعبادة إلى الله ـ تعالى ـ، فلابد له إذًا من التماس الوسيط الشافع من ذوي الحظوة والمنزلة عند الله ـ تعالى ـ من الأنبياء والأولياء وغيرهم، أو غير ذلك مما توحيه الشياطين إلى أوليائهم، مما يتوهمونه مسوغا لهم في التوجه إلى غير الله ـ تعالى ـ بالعبادة[1].

وإبطال هذه الحجة عقلاً يكون ببيان فساد الشرك من أصله، وقبحه في الفطر والعقول، ولو كان على سبيل التقرب والتزلف، كما دل على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾[2].

يقول ابن القيم: (هذا مثل ضربه الله لمن عبده وحده فسلم له، ولمن عَبد من دونه آلهة، فهم شركاء فيه متشاكسون عسرون، فهل يستوي في العقول هذا وهذا؟

وقد أكثر الله ـ تعالى ـ من هذه الأمثال، ونوّعها مستدلاً بها على حسن شكره وعبادته، وقبح عبادة غيره، ولم يحتجّ عليهم بنفس الأمر،

---

(١) انظر حجة الله البالغة للدهلوي: ١/ ١٧٧، وانظر الردّ على شبهة المشركين في أن الله ـ تعالى ـ أعظم من أن يُتقرب إليه مباشرة، وأن في ذلك غضًا من مقامه الرفيع في فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٣٣.

(٢) سورة الزمر: ٢٩.

بل بما ركبه في عقولهم من الإقرار بذلك، وهذا كثير في القرآن، فمن تتبعه وجده)[1].

ومما دل على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾[2].

فإن هذا مَثَل ضربه الله ـ تعالى ـ للمشركين به، ينكر فيه عليهم مساواة عبيده به في العبادة، في حين أنهم لايرضَون أن يكونوا هم وعبيدهم سواءً فيما رزقهم الله ـ تعالى ـ من رزق.

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه قال في معنى الآية: (يقول: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟) وفي رواية عنه أنه قال في معناها: (فكيف ترضون لي مالا ترضون لأنفسكم؟)[3].

ومن أدلة ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[4]، على قول من جعل التمانع في الآية تمانعًا في الألوهية، والفساد فيها بمعنى الفساد الناشىء عن عبادة غير الله ـ تعالى ـ[5].

يقول ابن القيم معلقًا على هذه الآية:

(أي لو كان في السمٰوات والأرض آلهة تُعبد غير الله لفسدتا وبطلتا، ولم يقل أرباب، بل قال آلهة، والإلٰه: المعبود المألوه، وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلاً أن يشرع الله عبادة غيره أبدًا،

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٩.
(٢) سورة النحل: ٧١.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٤/ ١٤٢.
(٤) سورة الأنبياء: ٢٢.
(٥) راجع الفصل المتعلق بأدلة توحيد الربوبية ص٢٨٠، ٢٨١.

وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السمٰوات والأرض، فقُبْح عبادة غيره قد استقرت في الفطر والعقول، وإن لم يَرد النهي عنه في الشرع، بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الإطلاق، وأنه من المحال أن يشرعه الله قط، فصلاح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود، وفساده وهلاكه في أن يُعبد معه غيره، ومحال أن يشرع لعباده مافيه فساد العالم وهلاكه، بل هو المنزّه عن ذلك)[1].

ولما كانت عبادة غير الله ـ تعالى ـ بهذه المثابة من القبح ومخالفة العقل والفطرة، جاء في القرآن التأكيد على أن المشركين ليس لهم على شركهم هذا أي دليل أصلاً، وأنهم إنما يعتمدون في ذلك على أوهام لاحقيقة لها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا[2] يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾[3]. المعنى: أيَّ حجة يتبعها هؤلاء في شركهم؟ الحقيقة أنهم إنما يتبعون الظن، والظن لامعوّل عليه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[4].

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ١١، وانظر تجريد التوحيد المفيد للمقريزي: ٥٢.

(٢) يحتمل في (ما) أن تكون استفهامية، ويحتمل أن تكون نافية، والاستشهاد بالآية هنا على الاحتمال الأول، انظر روح المعاني للآلوسي: ٦/ ١٤٥.

(٣) سورة يونس: ٦٦.

(٤) سورة يونس: ٣٦.